الأستاذة: د. أمينة أونيس
كلية الآداب واللّغات
قسم اللّغة والأدب العربي
السنة الدراسية: 2023/2022.
السداسي الأوّل

المادة: نقد النثر القديم (تطبيق)
الاختصاص: دراسات نقدية
السنة: الثالثة ليسانس.
الأفواج: 01 + 02.

نقد النثر عند الجاحظ البيان والتبيين

يقول ابن العميد: "إنّ كتب الجاحظ تعلّم العقل أوّلا و الأدب ثانيا"

يُعدّ كتاب "البيان والتبيين" من أهمّ كتب الجاحظ، ألّفه في أواخر أيامه تعصبا للعرب وفصاحتهم وبيانهم فهو في مضمونه وغايته في الدفاع عن البيان العربي في مختلف مظاهره.

يتضمن الكتاب: الألفاظ وفصاحتها، الأفكار والأساليب، تناسب اللفظ والمعنى، الأخبار، النوادر، الطرائف، الشعر، شواهد القرآن الكريم والحديث الشريف، والخطب والأمثال و غيرها للدفاع عن ما يذهب إليه، ساعد هذا الكتاب في إرساء الأسس العلمية الأولى للبلاغة العربية وفلسفة اللغة.

استند النقد عند الجاحظ على معارفه الكلامية والفلسفية والبلاغية، كما تفاعل مع حركة الترجمة، واطلّع على الأدب اليوناني الذي ازدهر كثيرا في عصره.

تحدّث الجاحظ في كتاب البيان والتبيين عن عدّة أشكال نثرية، سنكتفي بالتحدّث عن جنس الخطابة،يقول الجاحظ: **"ويرجع اهتمام العرب بجنس الخطابة إلى وقت مبكر، إذ كان العرب يلقبون الخطب التي تنال إعجابهم بألقاب معينة تنم عن إعجابهم بها، كما تنم عن احتوائها على المقاييس البلاغية المرسومة في أذهانهم لما ينبغي أن تكون عليه من حيث الجودة الفنية، فقد أورد الجاحظ أن العرب سمت خطبة قيس بن خارجة "العذراء" لأنه كان أبا عذرها".** [1]

وواضح انهم استجادوها فنيا، ولمسوا فيها بعض جوانب الابداع والابتكار كما تنم عن ذلك التسمية التي توحي بالشيء الجديد غير المطروق، واشتهرت خطبة سحبان وائل بن يدي معاوية بـ "الشوهاء" وقد قيل لها ذلك من حسنها، وذلك أنه خطب بها عند معاوية فلم ينشد شاعر ولم يخطب خطيب [2] ، يقول الجاحظ: **وهذا اللقب يدل على تذوق فني للخطبة باعثة الاعجاب الشديد بجمالها، وقد كان من سنن العرب أن يسموا ما أعجبهم من الأشياء بضد هذا الإعجاب تفاؤلا وتيامنا، أو للمبالغة في الوصف كما نص على ذلك ابن قتيبة.** [3]

وكما أطلقوا ألقابا على بعض الخطب، فقد أطلقوا أيضا ألقابا على بعض الخطباء تمييزا لهم عن غيرهم لبلاغتهم وحسن بيانهم، كلقب، "خطيب الشيطان"، و"**خطيب الله**"، **وفي ذلك يقول الجاحظ: وكان أسد بن كرز يقال له "خطيب الشيطان، فلما استعمل خالد ابنه على العراق قيل له: "خطيب الله".** [4]

1- ينظر: الجاحظ، البيان والتبيين، 348/1.
2- ينظر: الجاحظ، البيان والتبيين، 348/1.
3- مصطفى البشير قط، مفهوم النثر الفني وأجناسه في النقد العربي القديم، دار اليازودي العلمية للنشر والتوزيع، الأردن، ط1، 2009، ص:95.
4- ينظر: الجاحظ، البيان والتبيين، 375/1.

والحق أنّ الجاحظ الذي أورد صحيفة بشر بن المعتمر في كتابه البيان والتبيين يعد أول من التفت إلى الخطابة العربية، فكتب عنها ووصف مقوماتها وذكر بزّة الخطباء و لبسهم ووقفتهم واستعمالهم المخاصر والعصي والقسي للاتكاء عليها، وعيوبهم الخلقية والبيانية، ومواقفهم وصفات الإجادة فيهم، وشروط البلاغة عندهم، وتقاسيم الخطب بداية وختاما، وإيجازا وتطويلا، واستشهادا بالقرآن، وتمثلا بالشعر، وغير ذلك من عشرات المسائل، وكتاب البيان والتبيين حافل بالملاحظات النقدية الخاصة بجنس الخطابة، غير أنها ملاحظات مبعثرة منثورة داخل الكتاب لا يجعها نظام، وهي طريقة عرف بها الجاحظ في كتاباته. [1]

وبما أن الخطابة جنس نثري شفهي إلقائي بالأساس يعتمد على مواجهة الجماهير، ويهدف الخطيب إلى إثارة مشاعرهم لإقناعهم، فقد حظي الخطيب هو الآخر بعناية النقاد، واشترطوا فيه شروطا لتحقيق غايته؛ منها الثقافة الواسعة، إضافة إلى الموهبة الفطرية، فقد روى الجاحظ لأحدهم قوله: **"رأس الخطابة الطبع، وعمودها الدربة، وجناحاها رواية الكلام، وحليها الإعراب، وبهاؤها تخير الألفاظ، والمحبة مقرونة بقلة الاستكراه"**، ومن هنا فإنّ الإبداع في جنس الخطابة يشترط استعدادا فطريا عند الذين يودون امتلاكه، كما يشترط الثقافة الواسعة بروائع الآثار إلى جانب الممارسة والدربة.

كما اشترطوا في الخطيب أن تكون له مقدرة على معرفة نفسية المتلقين من السامعين حتى يستطيع أن يصل إلى مواضع التأثير في نفوسهم، واللعب بمشاعرهم والاهتداء إلى سبل استمالتهم واقناعهم، وقد قالت العرب: "لكل مقام مقال"، ومن ثم على الخطيب أن يعرف أقدار المعاني، ويوازن بينها وبين أقدار المستمعين باختلاف حالاتهم.

ومن أعيب عيوب الخطيب عندهم أن يفقد رباطة جأشه، ويعتريه التلعثم والاضطراب والخجل، وفي ذلك يقول الجاحظ: **" وأعيب عندهم من دقة الصوت وضيق مخرجه، وضعف قوته أن يعتري الخطيب البُهر والارتعاش، والرعدة والعرق".**

كذلك يعد سقوط الأسنان من عيوب الخطباء، وإن كان ذلك لا يمنع بعضهم من الفصاحة فإنه يمنعهم من إبانة الحروف، واخراجها بطريقة صحيحة، غير أن سقوطها جميعا أصلح في الإبانة عن الحروف من سقوط بعضها. وقد كان العرب يمتدحون سمة الأشداق و تبيين مخارج الحروف، ويعدونها من آلات الخطابة.

كما اشترط في الخطيب أن يتمتع بقوة العاطفة وصدقها، حتى يستطيع التأثير على مستمعيه، بعقد صلة وجدانية بينه و بينهم.

ولما كانت الخطابة جنسا نثريا شفهيا يعتمد على حضور "المخاطب" في المقام نفسه مع منتج الخطاب، فإن النقاد نصوا على أن الخطيب يستعمل وسائل تعبيرية أخرى غير الوسائل الكلامية اللفظية ممّا يتعلق بالإشارة، وفي هذا الصدد فإنّ الجاحظ الذي يعد المشرع الأول لقواعد الفن الخطابي " **يجعل الإشارة في المنزلة الثانية من أنواع التعبير**"، ويرى أنّها تكون باليد، وبالعين، وبالحاجب، وبالثوب وبالسيف، وهي تؤدي ما يؤديه اللفظ في الخط والكتابة وتغني عنه في بعض الأحيان.

وهكذا نلاحظ أنّ النقاد وبخاصة منهم الجاحظ لم يتركوا شيئا يتعلق بجنس الخطابة إلا وتحدثوا عنه حديثا موجزا أو مسهبا من خلال دراساتهم لواقع الخطابة والخطباء منذ العصر الجاهلي، فتقنينهم للخطابة لم يكن مجرد افتراضات أو نظريات، بل هو تقنين مستمد من دراسة واقع الحال، ومن تعاليم الدين الاسلامي الحنيف.

1- ينظر: مصطفى البشير قط، مفهوم النثر الفني وأجناسه في النقد العربي القديم، ص:97.